حول الأوزاعي

للأســـتاذ أمين الخولي

المدرس بكلية الآداب وكلية أصول الدين

الأوزاعي الكاتب . تفسير النصوص التاريخية والاستنباط منها

اتفق وأنا قريب عهد بكتاب « أحسن المساعي ، في مناقب الامام أبي عمرو الأوزاعي » الذي نشره ونقحه وعلق عليه ، وقدم له ، الأستاذ الكبير الأمير شكيب أرسلان ؛ أن وصلني العدد ٨٩ من الرسالة الصادر في ١٨ مارس سنة ١٩٣٥ ، وفيه مقال عن الأوزاعي لحضرة الأديب عبد القادر علي الجاعوني ؛ فلما قرأته تبدت لي نواح من القول عن الامام الأوزاعي ؛ وعن مقال الرسالة فيه ، وأحببت أن أحدث بها قراء الرسالة ؛ لكنما أحب قبل الخوض في شيء من ذلك أن أرسل وراء البحار ، على صفحات الرسالة الغراء ، تحية وإجلالاً للأمير العربي الكبير الأمير شكيب أرسلان لصدق غيرته ، وجليل خدمته للعروبة وأهلها علمياً وأدبياً واجتماعياً : تحية تقدير لحقه على الشرق والعرب ؛ وإجلال لذكريات كريمة للأديب العالم الأمير ، على تعادي الأيام ، ونأي الديار

١ — الأوزاعي الكاتب

اشتهر عند القدماء والمحدثين ، أن الأوزاعي إمام فقيه مجتهد ، صاحب مذهب ، أو ما يتصل بذلك وينتهي اليه ، فحسب ؛ ولم يعرفه الأدباء ومؤرخو الآداب ، من أصحاب الأقلام والناثرين المقتدى بهم في القرن الثاني الهجري ، من جيل عبد الحميد الكاتب أو يكاد ؛ لكن هناك ناحية أدبية ، في الأوزاعي ، له فيها تفوق خطير ، وآثار ذائعة ، ومشاركة فعلية في حياة النثر العربي الأولى ، وتاريخ الرسائل ؛ إذ يذكر مترجموه أنه كان بارعاً في الكتابة والترسل ؛[1] وأنه كانت صنعته الكتابة والترسل فرسائله تؤثر[2]

وينقلون أنه كان من ذلك موضع الاعجاب والاكبار ، إذ يروون أن كتبه كانت ترد على المنصور فينظر فيها ، ويتأملها ، ويتعجب من فصاحتها وحلاوة عبارتها[1] ؛ بل كان في موضع الاحتذاء والتقليد ، بل كان يقتبس رءوس الكتاب من قوله ، ويأخذون عنه ، ويتهيبون الاجابة عن رسائله ؛ إذ يقول المنصور يوماً لأحظى كتابه عنده ، وهو سليمان بن مخلد : ينبغي أن تجيب الأوزاعي عن كتبه ، فيقول : والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على ذلك ، وقال : لا على مثل كلامه ولا على شيء منه ؛ وإنا لنستعين بكلامه نكاتب به إلى الآفاق ، إلى من لا يعرف أنه كلام الأوزاعي[2] . لكن فقه الشيخ طغى على أدبه ، وأخمل ذكره فيه ؛ حتى يقول الذهبي في طبقات الحفاظ بعد أن روى عن أبي زرعة الدمشقي أن الأوزاعي كانت صنعته الكتابة والترسل فرسائله تؤثر : قلت : هذا نافلة سوى الفقه[3] ؛ وهكذا غلب الفقه الأدب على الرجل ، كما غلبه على الشافعي من بعده ؛ وكما لا تزال تهيء تلك الغلبة ظروف الحياة ، فتمضي بأدباء متفوقين إلى غير حرفة الأدب . لكنا لا ننصف حين نؤرخ الأدب فنتابع القدماء على اعتبار أدب الأوزاعي نافلة ؛ ولا ننصف إذا أعطينا هذا المعد المبكر بنثره لعبد الحميد وابن المقفع وحدهما ؛ ولا نتحرى درس الأوزاعي الأديب الناثر الممتاز إذ ذاك ، ولا نعنى بجمع آثاره في هذا ، ولاسيما بعد ما نسمع قول المؤرخين أنهم عرفوا له كلاماً ومواعظ ورسائل كثيرة[4] . فلعل الأدباء يعنون بجمع هذه الآثار وتتبعها ؛ ولعل المؤرخين يعنون بدراسة أثر الرجل ومنزلته بين الأدباء الناثرين في هذا العصر . وفي سبيل هذا التعاون أشير إلى مواضع ذلك في الكتاب المنشور عنه ؛ ففي الصفحات — ٨٤ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٦ ، كتب للأوزاعي . وفي — ٨٧ ، ١٢٤ ، ١٣٧ مواعظ له ؛ وفي — ١٣٨ وما بعدها كلمات له وحكم ، ولعل الزمن يسمح لي بالمشاركة في شيء من ذلك الدرس

٢ — تفسير النصوص التاريخية والاستنباط منها

تاريخنا الفني والعلمي والاجتماعي لم يكتب بعد ، إذ اتجهت عناية القدماء إلى التاريخ السياسي واستيفائه ، فلم يتركوا إلا أصولاً متفرقة عن التاريخ غير السياسي ، وإن النهضة لتتقاضانا هذا الحق ، سداً لذلك النقص البادي ، ونحن في هذا العصر نحاوله في النواحي المختلفة ، وننتفع بما كتبه المستشرقون فيه ،

(١) أحسن المساعي أيضاً ص ٧٢ (٢) مقدمة أحسن المساعي ص ٣٩
(٣) أحسن المساعي ص ١٣٩

(١) أحسن المساعي ص ٣٥ (٢) أحسن المساعي ص ٥٩

ولكن المادة الحقيقية إنما هي تلك المتفرقات القديمة التي كتبها أهل ذلك الشأن ، عن قرب ومباشرة ، وبادراك صحيح لروح ما يؤرخون وحقيقته . وفي الرجوع إلى هذه المتفرقات تحتاج إلى تفسير النصوص التاريخية بعد فهمها على وجهها فهماً صحيحا لنستنبط منها أحكامنا على العصور والرجال والأعمال ؛ والمتصدون لهذه الدراسة التاريخية الفنية أو العلمية أو الاجتماعية ، يجرون من ذلك على أسلوب أشعر أنه لا يزال يحتاج الى غير قليل من الدقة ؛ وأن أحكامهم معه لا تسلم من الدخل والوهن ؛ وليس هذا موضع الأفاضة والبيان المسهب في ذلك ، فانه مما يستحق القول المفرد في غير هذه الفرصة ؛ وإنما أحببت في هذا المقام أن أشير إلى ما يقع كثيراً في تفسير هذه النصوص ، من عدم الرجوع إلى مواضعات القدماء أنفسهم في الشؤون الخلقية والعلمية والعملية مما تشرحه كتبهم ؛ والاعتماد في الفهم على ظواهر العبارات ، أو القياس على مواضعاتنا وعوائدنا دون تقدير لما هنالك من اختلاف قد يكون كبيراً ، وكذلك عدم التنبه إلى نواميس الحياة النفسية الانسانية التي يجب توفر الخبرة بها قبل التصدي لتفسير أعمال الأشخاص وأقوالهم أو الأقوال عنهم ، ثم وجوب رعاية السنن الاجتماعية وتأثيرها وتأثرها قبل الحكم على الحوادث أو الرجال وتعليل الأعمال وبيان آثارها ؛ فكل أولئك وكثير غيره مما يجب أن يقوم عليه فهم النص التاريخي ، وتفسيره بله الاستنباط منه ؛ وليست تلك المهمة من الهوان بما يتراءى لبعض محاولي تلك الدراسة ، وأستميح الأديب الجاعوني عذراً في أن أشير الى بعض تفسيرات تاريخية وردت في مقالته ، تمثيلاً لهذه الدقة وما يجب مراعاته في هذه المهمة . فهو مثلاً يقول ، حين عد شيوخ الأوزاعي وتلامذته : « وروى عنه جماعة من الذين سمعهم كقتادة والزهري وغيرهم » (ص ٤١٩ رسالة) وعلق على ذلك في الهامش رقم ٧ بقوله : « يظهر أن قتادة والزهري كانا معاصرين للأوزاعي ، فسمع منهم وبذلك نعدهم أساتذته ، ومن ثم رووا عنه ، ولذلك يصح لنا تجاوزاً أن نعدهم من تلاميذه » وتنظر أولاً إلى قوله إن قتادة والزهري كانا معاصرين للأوزاعي فلا ترى ذلك صواباً على هذا الاطلاق ؛ فهؤلاء من التابعين ، وليس الأوزاعي منهم — وإن ادعى بعضهم له ذلك — ثم هم على كل حال جيل آخر ، بين وفاة الأوزاعي ووفاة آخرهم نيف وثلاثون عاماً — قتادة توفي سنة ١١٧ ، والزهري سنة ١٢٣ ، والأوزاعي توفي سنة ١٥٧ — ودع هذا فترى تفسير الكاتب لأخذه عنهم وأخذهم عنه واعتبارهم تجوزاً تلاميذه ، تراه قلقاً مضطرباً . وكانت تدفعه ملاحظة عادة القوم في هذا النوع من الرواية الذي كانوا يسمونه رواية الأكابر عن الأصاغر ، ويفردونه بالبيان الخاص في أصول الرواية ؛ وكانوا يرمون فيه إلى اعتبار خلق نبيل من تقدير العلم وأخذه حيث كان ، وحطم الكبرياء المغرورة للأستاذية ، ليظل المروي عنه أبداً طالب علم ، ومرتاد حقيقة يأخذها حتى عن تلميذه ، وهذا التفسير نفسه منصوص في كتاب أحسن المساعي الذي أرجح كثيراً أن الكاتب قد رجع اليه ، إذ ورد في ص ٥٢ — ٥٣ منه ما نصه « ... وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين ، كمالك بن أنس ، والثوري ، والزهري ، وهو من شيوخه ، وهذا من رواية الأكابر عن الأصاغر فان الزهري من التابعين ، وليس الأوزاعي من التابعين »

ثم إن الكاتب صاحب المقال عن الأوزاعي يتعرض لقول جولد زهير بتأثر الفقه الاسلامي بالفقه الروماني ، ويرى أن الأوزاعي أحرى بأن يكون آخر المتأثرين ؛ ص ٤٢٠ (رسالة) ؛ ويحتج لهذا الاستنباط « بأنه من أبعد الفقهاء عن الرأي ، ومن أقربهم إلى اتباع الكتاب والسنة .... والكتاب والسنة أبعد الأشياء عن التأثر بالفقه الروماني » . ومع عدم تعصبي للقول بهذا التأثر ، ومع القصد في بيانه ، فاني أرى هذا الاستدلال على عدم تأثر الأوزاعي غير مقبول من الوجهة الاجتماعية والنفسية ، فان متبع الكتاب والسنة لابد له من أن يفهمهما ، ويتبين مراميهما ، وأغراضهما ، وعللهما وحكمهما ، ولكل شخص في هذا الفهم والتبين عقله الخاص ، وشخصيته الخاصة ، ومنهجه الخاص ، وذلك كله من أشد ما يكون تأثراً بالثقافة والبيئة ، فلا غرابة في أن يتأثر فهم الفاهم للكتاب والسنة المتبع لهما ، تأثراً جلياً بعوامل تثقيفه ، وظروف حياته ، كما تأثر بذلك تفسير القرآن في كل الأزمنة ، بل كما تأثر بذلك فهم العقائد وأصول الدين ذاتها تأثراً لا يسعنا إنكاره ؛ ولا قيمة لحرصنا على هذا الانكار ، لأننا بذلك نقاوم سنن الله في خلقه

تلك مُثُل صغيرة لما تجب مراعاته في تفسير النصوص وفهمها والاستنباط منها ، حتى نوفق لكتابة تاريخنا غير السياسي ، بل السياسي كذلك كتابة علمية صحيحة ، تنير ماضينا وتمد مستقبلنا بكل قوة وحقيقة

أمين الخولي